UNIVERSITI MALAYA

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
Islamic University in Madinah

ندوة الوسطية في القرآن والسنة النبوية وتطبيقاتها المعاصرة في المملكة العربية السعودية وماليزيا

International Conference on *Wasatiyyah* in the Qur'an and *Sunnah* and Its Contemporary Applications In Kingdom of Saudi Arabia and Malaysia

تنظمها الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بالتعاون والتنسيق مع جامعة ملايا في كوالالمبور - ماليزيا

يوم الخميس ٢٠/١١/١٤٣٤هـ الموافق ٢٦/٩/٢٠١٣م

Organized by the Islamic University in Madinah and University of Malaya, Kuala Lumpur - Malaysia

On Thursday, 20/11/1434 AH 26/9/2013 AD

Conference Proceedings

بحوث علمية محكّمة

Contents/ محتويات

Contents/ محتويات	i	أ
Foreword/ مقدمة	ii	٥

رقم No.	موضوع Title	صفحة Page
	❁ مفهوم الوسطية ودراساتها ❁ Concept of *Wasatiyyah* and Studies on It /	
١	الوسطية في القرآن الكريم وتطبيقاتها المعاصرة في الدعوة إلى الله في المملكة العربية السعودية أ.د. عبد العزيز بن صالح العبيد	١-٢
٢	الوسطية في السنة النبوية وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية د. حسين بن شريف بن أسعد العبدلي	٣-٤
٣	الوسطية من خلال أساليب الحوار في الخطاب القرآني د. ثابت أحمد أبو الحاج	٥-٢٢
٤	قبسات من حياة الرسول في الوسطية والاعتدال د. علي علي ساجد	٢٣-٤٢

2013
PROCEEDINGS OF INTERNATIONAL CONFERENCE ON *WASATIYYAH* IN THE QUR'AN AND *SUNNAH* AND ITS CONTEMPORARY APPLICATIONS IN KINGDOM OF SAUDI ARABIA AND MALAYSIA.

© Secretariat of International Conference on *Wasatiyyah* in the Qur'an and *Sunnah* and Its Contemporary Applications in Kingdom of Saudi Arabia and Malaysia,
Block C, Level 4,
Department of al-Quran & al-Hadith,
Academy of Islamic Studies,
University of Malaya,
50603 Kuala Lumpur.

All Right Reserved.

No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form, or by any means, electronic, mechanical photocopying, recording or otherwise, with the prior permission from the Secretariat, Block C, Level 4, Department of al-Quran & al-Hadith, Academy of Islamic Studies, University of Malaya, 50603 Kuala Lumpur, Malaysia.

International Conference on *Wasatiyyah* in the Qur'an and *Sunnah* and Its Contemporary Applications in Kingdom of Saudi Arabia and Malaysia,
Block C, Level 4, Department of al-Quran & al-Hadith, Academy of Islamic Studies, University of Malaya, 50603 Kuala Lumpur, MALAYSIA.
26 September 2013

Type Setting: Asyraf Isyraqi Jamil, Thabet Ahmad Abdallah Abu al-Haj & Muhammad Faidz Mohd Fadzil
Text Type & Font Size:
i. Garamond: 10, 11, 12
ii. Lotus Linotype: 10, 12, 14, 16, 18

الفصل الرابع : الوقاية من الانحراف
الفصل الخامس :التطبيق العملي للوسطية في المملكة العربية السعودية

الوسطية في المنهج المقاصدي عند ابن عاشور

د. نشوان عبده خالد قائد

وحدة البحث والنشر، أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة ملايا – ماليزيا

الملخص

تنبع أهمية هذا البحث من تناوله للوسطية التي تركز على الفهم الشمولي والتكاملي للإسلام، وهما مقصدان نبيلان جاء القرآن لتقريرهما بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ويتضح هذا جلياً في نبذ التنطع وترك المغالاة، وبالمقابل تجنب التساهل والتباطؤ في الواجبات والحقوق، وسلوك طريق السماحة والتيسير، مع مرعاة ثوابت الشرع ومتغيرات العصر. بين هذا البحث معالم الوسطية في المنهج المقاصدي عند ابن عاشور، حيث أبان مفهوم الوسطية في منهجه، وأوضح جوانب من وسطية ابن عاشور في تناوله لمقاصد القرآن الكريم بين ثنايا تفسيره، وفي تنظيراته التي أوضحها في مؤلفاته المختلفة، كما أشار إلى منهج ابن عاشور في مقاصد الشريعة من خلال تحليل بعض القضايا المهمة التي لها علاقة بالوسطية كالسماحة والمساواة والتيسير، والتي أظهرت بجلاء وسطية ابن عاشور في تناوله لقضايا المقاصد، وقدرته الفكرية على التجديد والتنوير في الأصول التي قادته إلى المناداة بإفراد مبحث المقاصد كعلم مستقل له قواعده وأركانه.

أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من تناوله للوسطية التي تركز على الفهم الشمولي والتكاملي للإسلام، وهما مقصدان نبيلان جاء القرآن لتقريرهما بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ويتضح هذا جلياً في نبذ التنطع وترك المغالاة وبالمقابل

تجنب التساهل والتباطئ في الواجبات والحقوق وسلوك طريق السماحة والتيسير مع مرعاة ثوابت الشرع ومتغيرات العصر.

أهداف البحث

يروم هذا البحث إلى تحقيق الهدفين الآتيين:

- توضيح مفهوم الوسطية بناء على القراءة المقاصدية.
- بيان جوانب الوسطية في النهج المقاصدي لدى ابن عاشور.

خطة البحث

ولتحقيق الهدفين السابقين فإن محتوى البحث سيكون وفقاً للتقسيم الآتي:

- المقدمة: وفيها أهمية البحث،واهدافه، وخطته ومنهجه.
- المبحث الأول: مفهوم الوسطية في المنهج المقاصدي.
- المبحث الثاني: وسطية ابن عاشور في منهجه المقاصدي في التفسير.
- المبحث الثالث: الوسطية عند ابن عاشور في مقاصد الشريعة.
- الخاتمة وفيها تقرير النتائج والتوصيات.

منهج البحث

ولتتبع وإيضاح هذه المحتويات فإننا نسلك منهجين:

- المنهج الاستقرائي: لقراءة معاني الوسطية عند ابن عاشور.
- المنهج التحليلي: لبلورة المنهج الوسطي الذي استخدمه ابن عاشور في حديثه عن المقاصد.

توطئه

يعد التوسط والاعتدال من المطالب الشرعية، والمبادئ التربوية التي جاءت النصوص آمرة به محذرة مما عداه من الإفراط والتفريط، قال تعالى: ﴿لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: "هلك المتنطعون"[١]، وفي الطرف المفرط قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥]، ولذاك كان من أعظم المقاصد التي راعتها الشريعة السماحة والتوسط، واليسر والتوازن، بيد أن التوسط يعد أحد أركان أربعة يبنى عليها حسن الخلق وهي: الصبر والعفة، والشجاعة، والتوسط[٢]، يقول ابن القيم: "والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو التوسط بين الذل والوقاحة، وعلى خلق الشجاعة الي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو وسط بيم الغضب والمهانة، وسقوط النفس"[٣]، كما يعتبر التوسط من أهم الأدعية التي يمارسها المسلم، ويرجوها كل مؤمن، حين يناجي ربه في كل ركعة بقوله: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. كما يعتبر التوسط والمساواة والسماحة من المقاصد الجليلة التي قررها علماء المقاصد لما يترتب عليها من جلب للمصالح ودرء للمفاسد، ويقرر ابن عاشور ذلك بأن الاعتدال والسماحة أول أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها[٤].

وإن من المفاسد العظيمة التي تضر بالناس المغالاة أو التساهل في دين الله الذي يفضي إلى تعطيل المصالح، ونزع بذور الخيرية التي وصفت بها أمة الإسلام، ولقد سلكت طائفة من الناس مسلك المغالاة، بينما سلكت طائفة أخرى مسلك التساهل، وهذا مصداقاً لقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغاليين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"[٥]، وإن من أبرز الإشكاليات القائمة أن الوسطية المقاصدية وقعت بين

---

[١] أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ص٥٨، حديث رقم: ٦٩٥٥.

[٢] الفريح، مازن بن عبد الكريم، الرائد دروس في التربية والدعوة، دار الأندلس الخضراء: جدة المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص١٢.

[٣] الجوزية، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي: بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج٢، ص٣٠٨.

[٤] انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، عمان الأردن: دار النفائس، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٢٦٨.

[٥] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الأيمان، باب الرجل من أهل الفقه، ص٢٠٩، حديث رقم: ٢١٤٣٩.

مطرقتين: الأولى: الإغفال فأظهرت المقاصد في ثوب الجفاء والغلو والتطنع في أوضح معانيه، والثانية: استخدمت الوسطية ستاراً لمواجهة القرآن والسنة والدعاة إليهما، وربما وظفت الوسطيّة لشرعنة العلمانية وتبرير الانحراف والتسيب باسم التسامح والاعتدال -وهما جوهر الوسطية_ وكأن الإسلام لا يحمل ثوابتاً ولا يملك تخوماً وهامات.

وفي هذا البحث نحاول إبراز جوانب من الوسطية في المنهج المقاصدي لدى ابن عاشور لنرى كيف سلك منهجاً وسطاً بين الإفراط والتفريط في جمله حديثه عن المقاصد والأصول وما تفرع عنهما من أحكام ووسائل.

المبحث الأول: مفهوم الوسطية في المنهج المقاصدي

يعبر عن الوسطية بالاعتدال والتوازن والخيار والسماحة[٥]، وكلها معاني متقاربة لغوياً[٦]، ويعبر عنها في الاصطلاح بأنها: "إعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ولا نقص، وهي تنشأ عن معرفة حقائق الأشياء كما هي عليه، ومعرفة حدودها وغاياتها ومنافعها، وهي الحكمة الـمُنَوَّه بها في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].... وكون التوسط من أوصاف الإسلام ثابت بدلائل كثيرة عند الموازنة بين أحكام الأشياء في الإسلام، وأحكام نظائرها في الشرائع السالفة"[٨]، ويستدل ابن عاشور بقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وبحديث أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الوسط هو العدل[٩]، ويوافق ابن عاشور جمهور

[٥] انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط١، د.ت، ج٧، ص٤٢٦. وانظر: ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج٦، ص١٠٨.

[٦] انظر: الصلابي، علي محمد محمد، الوسطية في القرآن الكريم، الإمارات: مكتبة الصحابة، القاهرة: مكتبة التابعين، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، ص١٧.

[٨] ابن عاشور، محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، عمّان: دار النفائس، ط١١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٤٧.

[٩] أخرجه البخاري ، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، ص٤، حديث رقم: ٤٢١٧.

المحققين من المفسرين في معنى التوسط أنه بمعنى العدل أي بين الإفراط والتفريط[١٠]، فقد ذهب الإمام الطبري إلى أن: "الوسط هو الخيار يقال منه: فلان وسط الحسب في قومه أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك ا لرفع في حسبه"[١١]، ويعزز من مفهوم الوسطية سيد قطب في تفسيره فيقول: "وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه الحسي المادي، أمة وسطاً في التصور والاعتقاد، لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي، إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح... وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط، في قصد وتناسق واعتدال.."[١٢]، وبهذا الوصف لمعنى الوسطية يكون قد جمع بين المعاني اللغوية والمعاني الاصطلاحية.

ويتناول ابن عاشور الوسطية بوصفها السماحة، حيث يرى ابن عاشور أنها: "السهولة المحمودة في ما يظن الناس التشديد فيه، ومعنى كونها محمودة أنها لا تفضي إلى ضر أو فساد"[١٣]، ويقرر أن لمقصد السماحة في الشريعة أثر عظيم في انتشارها وطول دوامها فهي وسط بين التضييق والتساهل وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط.[١٤]

ويقعد ابن عاشور لمنهجه المقاصدي في مفهوم الوسطية فيرى وقوعها بين الحزم والتيسير حيث يرى أن المقاصد لا بد من تطبيقها في الواقع وفق مسلكين مسلك الحزم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ومسلك التيسير: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، حيث يرى ابن عاشور أن أحكام الشريعة مبينة على التيسير ويؤكد أنها "أنها تعمد إلى تغيير الحكم الشرعي من صعوبة إلى سهولة في الأحوال العارضة للأمة أو الأفراد فتيسر ما عرض له

[١٠] انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م، ج٢، ص١٧.

[١١] الطبري، محمد ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج٣، ص١٤١.

[١٢] قطب، سيد إبراهيم، في ظلال القرآن، بيروت: دار الشروق، ط١٧، د.ت، ج١، ص١٠٠.

[١٣] ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٦٩.

[١٤] انظر: المرجع السابق، ص٢٦٨، ٢٧١.

العسر"[١٥]، فالوسطية واقعة بين الحزم والتيسير على الجانب التطبيقي وهذا الفهم العملي للوسطية الذي استقاه ابن عاشور من الأدلة يدلل على نظرته العميقة ومنهجه الوسطي في استقراء المقاصد.

ويجد الناظر في الواقع المقاصدي وقوع الناس بين الإفراط والتفريط، ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، ولا أفضل من الوسطية في النهج المقاصدي.

والوسطية في المنهج المقاصدي تعني انزال المقاصد في منازلها الصحيحة دون تغييب أو مغالاة بها من جهة اعتبارها حاكمة على النصوص، فالمصدر الرئيس للمقاصد هي نصوص الشريعة كما قرر ذلك العلماء.

المبحث الثاني: وسطية ابن عاشور في منهجه المقاصدي في التفسير

اختلفت طرائق المفسرين في تعاطيهم مع المقاصد في التفسير، فمن اهتمام ظاهري للنص إلى خروج عن ضوابط التفسير، وبالخصوص فيما يتعلق بالمنهج المقاصدي، فقد اقتصر بعضهم على معاني مجردة للنصوص، وساقوا معاني الآيات، والآثار الوادرة فيها كما هو الحال في التفسير اللغوي والتفسير بالمأثور، أو سلوك مسلك الأحكام كالتفاسير الفقهية، وجميعها -تقريباً- جانبت المقاصد كمنهج أو توجه يحكم مسارها، وفي الناحية الأخرى مسلك التنويريين الذي اتخذوا من المقاصد مطية للتعبير عن توجهاتهم العلمانية وقناعاتهم الشخصية، فجعلوا المقاصد حاكمة على نصوص القرآن الكريم[١٦]، فوقعت المنهج المقاصدي بين معضلتي الإفراط والتفريط.

وقد سلك ابن عاشور منهجاً وسطاً في استقراءه لمقاصد القرآن الكريم، ورسم معالم المنهج المقاصدي منذ اللحظات الأولى في تفسيره، فهو يقف موقف الوسط وموقف العدل في نظرته ومنهجه المقاصدي، فقد قرر ذلك في مقدمة تفسيره فقال: "أقدمت على هذا المهم إقدام الشجاع

[١٥] المرجع السابق، ص٣٧٩.

[١٦] ومن ذلك ما جاء عن محمد أركون حيث جعل من الرمزية الدينية والتغيير الاجتماعي حَكَمٌ على النصوص وتوصل إلى أن بعض مقاصد الآيات لا تصلح لزماننا، وذكر منها قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]، فقال: "في إطار الآية كان الوعد موجهاً للنبي، في بداية رسالته يوم كان يتيماً ضالاً وعائلاً، ولا تحتاج لإطار لكي تبرز دلالاتها المتجددة مع الأوضاع" محمد أركون، ولوي عارديه، الإسلام الأمس والغد، ترجمة: على المقلد، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٣م، ص٢٠٣.

على وادي السباع؛ متوسطاً في معترك أنظار الناظرين، وزائر بين ضباح الزائرين، فجعلت حقاً عليَّ أن أبدي في تفسير القرآن الكريم نكتاً لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها"[١٧]، يذهب ابن عاشور في منهجه إلى سلوك مسلك الإصلاح لتوجيه المقاصد القرآنية نحو الوجهة الصحيح فينتقد المناهج التفسيرية التي جانبت المقاصد وحيدت النص عن المراد الواسع فيقول: "ثم أصبح تفسير القرآن تسجيلاً يضيق به فهم القرآن، ويقيد به معناه الذي كان السلف يقولون فيه: "إنه لا تنقضي عجائبه ولا تنفذ معانيه" بأسبابٍ جرَّت إلى هذا التضيق"[١٨]، ثم شرع بتعداد أسباب التضييق في فهم القرآن فذكر منها: الولع بالنقل والتوقيف، الضعف في اللغة والبلاغة، والضعف في علوم يُظن بأنها بعيدة عن القرآن كالعمران والتاريخ والأديان والسياسة، ثم الخروج إلى علوم لا تعلق لها بمعنى الآيات[١٩]، وابن عاشور بهذه الرؤية الإصلاحية يحاول سلوك مسلك الوسط في التفسير ومقاصده فهو ينقد المناهج التي جانبت الفهم الشمولي للنص، والمناهج التي أدخلت على النص ما ليس منه وبالمقابل يرشد إلى منهج وسطي يهتم بمقاصد القرآن الكريم ويبرز معانيه، ويستفيد من العلوم التي لها تعلق بفهم الآية وارتباط بدلالاتها.

ويسوق لنا ابن عاشور جانياً من جوانب الوسطية في منهجه المقاصدي إذ يوضح مساره الوسطي في التعاطي مع تفسير الآيات معلقاً على منهج التفريط الواقع عند بعض المفسرين فيقول: "ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله"[٢٠]، فإن كثيراً من المناهج التفسيرية جانب التصريح من المقاصد القرآنية مع جلالة قدرها، وسمو منتهجيها، واقتصرت على معاني النصوص الظاهرية، وغالت في اتباع معاني للنص قليلة، وبالمقابل

[١٧] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج١، ص٧.

[١٨] ابن عاشور، محمد الطاهر، أليس الصبح بقريب، تونس: دار سحنون، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٦١.

[١٩] انظر: المرجع السابق، ص١٦٢-١٦٤.

[٢٠] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج١، ص٨.

سلكت طائفة أخرى من المفسرين مسلك التفريط في التفسير فأدخلت في التفسير ما ليس منه، فتحدثت عن الفلك والطب وعلوم الأرض، ويبين ابن عاشور غرض المفسر وفق منهجه في المقدمة الرابعة من مقدمات تفسيره، ويظهر في ذلك توسطه حيث يصرح بأن غرض المفسر: "بيان ما يصل إليه أو يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلاً وتفريعاً"[٢١]، فهو يرى أن هدف المفسر واقع في دائرة المحامل التي يحتملها النص مع موافقة أوجه اللغة، ويذهب إلى أبعد من ذلك أن كل مايتصل بالنص من علوم فلا بأس من الاستشهاد به، وهو بذلك يكون قد وقع وسطاً بين الإفراط والتفريط في المنهج المقاصدي.

ويجلي ابن عاشور علاقة العلوم بتفسير القرآن الكريم، وأنها على أربعة مراتب: "الأولى: علوم تضمنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة، الثانية: علوم تزيد المفسر علماً كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات، الثالثة: علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق، الرابعة: علوم لا علاقة لها به إما لبطلانها كالزجر والعيافة والميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي"[٢٢]، يضعنا ابن عاشور أمام منهج وسطي لتعاطي المفسر مع العلوم، فمنها علوم أساسية لا غنى للمفسر عنها وقد ذكرها في القسم الأول، وعلوم معينة ووسائل وقد ذكرها في القسم الثاني والثالث، وعلوم لا حاجة إليها في التفسير وذكرها في القسم الرابع، وهو بذلك يقشع الغبار عن علاقة العلوم الأخرى مع التفسير والتي بالغ في استخدامها مفسرون وفرط فيها آخرون.

ومما ميز منهج ابن عاشور وتوسطه في المقاصد تناوله للمقاصد الأصلية التي جاء القرآن الكريم لتبيانها، فقد جعلها مقاصد شاملة معتدلة لم تقص جانباً من الجوانب فركزت على الاعتقاد باعتباره أعظم سبب لإصلاح الخلق، وشملت تهذيب الأخلاق باعتبارها الانعكاس الحقيقي للالتزام، والتشريع بأحكامه العامة والخاصة، كما ركزت على سياسة الأمة باعتباره باباً مهماً لصلاح

[٢١] المرجع السابق، ج١، ص٤١.

[٢٢] المرجع السابق، ج١، ص٤٥.

الأمة وحفظ نظامها، ثم القصص وأخبار الأمم السابقة للتأسي بصالح أحوالهم، وركزت على التعليم باعتباره منفذاً لتعلم الشريعة ونشرها، خلوصاً بالمواعظ والأعجاز بالقرآن باعتباره آية دالة على صدق الرسول[٢٣]، ولا غرابة إذا قلنا بأن منهج ابن عاشور الوسطي في استخدام المقاصد في التفسير مثل رافداً مهماً من روافد التجديد في التفسير بمستوييه التنظيري والتطبيقي، ويجد المتمعن ملامح ذلك المنهج ظاهر في المساقات النظرية التي جلاها في مقدمات تفسيره وفي كتابه أليس الصبح بقريب، وفي تطبيقاته بين ثنايا التفسير.

المبحث الثالث: الوسطية عند ابن عاشور في مقاصد الشريعة

تنوعت المناهج التي استخدمت مقاصد الشريعة المنبثقة عن أصول الفقه، فمن زاعم لجعلها في دائرة الأصول[٢٤]، ومن مشجع لجعلها علماً مستقلاً[٢٥]، وهذه بحد ذاته يمثل مساراً ذا تساؤل في علم مهم مثل علم المقاصد، وأياً كانت وجهات النظر إلا أنه يبقى التوسط هو محور كمالات العلوم، فإن تناول مبحث مقاصد الشريعة عند الشاطبي الذي يعد: "حجة من حجج الشريعة، وعلماً من أعلام مقاصدها"[٢٦]، كان من قبيل أصول الفقه بل ركن ركين فيه[٢٧]، ولا أكثرها من ذلك غير أن منهجه اتسم بالتصريح في علم مقاصد الشريعة، بل أفرد للمقاصد الشرعية مساحة واسعة كما يظهر في القسم الثاني من كتاب الموافقات الذي أسماه كتاب المقاصد[٢٨]، غير أن ابن عاشور جاء وأظهر هذا العلم أكثر ونادى بفصله عن أصول الفقه وجعله علماً مستقلاً، حيث يصرح بذلك في كتابه مقاصد

[٢٣] انظر: المرجع السابق، ج١، ص٣٩-٤٥.

[٢٤] يعتبر الإمام الشاطبي مقاصد الشريعة واقعة في دائرة أصول الفقه، انظر: الشاطبي، أبوإسحاق، الموافقات في مقاصد الشريعة، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، السعودية: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٢، ص١٠١.

[٢٥] يعتبر ابن عاشور من أوائل المنادين بجعل مقاصد الشريعة عملاً مستقلاً، انظر: ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٧٢.

[٢٦] الريسوني، أحمد، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٤، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٣٥٢.

[٢٧] الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج١، ص٢.

[٢٨] انظر: المرجع السابق، ج٢، ص٧.

الشريعة الإسلامية فيقول: "ثم نعيد صوغ ذلك العلم ونسميه علم مقاصد الشريعة، ونترك علم أصول الفقه على حاله"[٢٨]، وهو بذلك يضعنا أمام علم له أصوله وقواعده ونظرياته.

ولقد فاضت مؤلفاته بذكر جملة من القواعد المقاصدية التي اتسمت بالوسطية والاعتدال، فهو يرى أن المقصد العام من التشريع هو: "حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه صلاح عقله، وصلاح علمه، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه"[٢٩]، ويرى بأن المقصد الأعظم من الشريعة هو: "جلب الصلاح ودرء الفساد"[٣٠]، فهو وسط بين المناهج التي جردت نصوص الشريعة من المقاصد كالمناهج التقليدية، وبين المناهج الحديثة التي جعلت من المقاصد أصولاً حاكمة على النصوص.

ويقرر ابن عاشور أن المقاصد الشرعية مبنية على وصف الشريعة الأعظم وهو الفطرة فيقول: "ونحن إذا أجدنا النظر في المقصد العام من التشريع...، نحده لا يعدو أن يساير حفظ الفطرة، والحذر من خرقها واختلالها"[٣١]، وفي ذلك توسط في النظر إلى الفطرة، وإجلال لقدرها.

وينهج ابن عاشور منهج الوسطية في حديثه عن المصلحة والمفسدة حيث يضع لنا الضوابط التي تنضبط بها، مع إقراراه بوجود النفع الخالص والضر الخالص أحياناً، ومن الضوابط في ذلك: "أن يكون النفع أو الضر محقَّقاً مطَّرداً...، وأن يكون النفع أو الضر غالباً واضحاً تنساق إليه عقول العقلاء والحكماء، وهذا أكثر أنواع المصالح والمفاسد المنظور إليها في التشريع...، وأن لا يمكن الاجتزاء عنه بغيره في تحصيل الصلاح وحصول الفساد"[٣٣]، وقد كان ابن عاشور أكثر تمحيصاً لضوابط المصلحة والمفسدة ممن سبقه حيث يرى العز بن عبد السلام أن المصالح والمفاسد عزيزة الوجود فيقول: "واعلم أن المصالح الخالصة عزيزة الوجود، فإن المآكل والمشارب والملابس والمناكح والمراكب والمساكن لا تحصل إلا بنصب مقترن بها، أو سابق، أو لاحق، وأن السعي في

[٢٨] ابن عاشور،مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٧٢.

[٢٩] المرجع السابق، ص٢٧٣.

[٣٠] المرجع السابق، ص٢٧٦.

[٣١] المرجع السابق، ص٢٦٦.

[٣٢] المرجع السابق، ص٢٨٣.

تحصيل هذه الأشياء كلها شاق على معظم الخلق لا ينال إلا بكد وتعب، فإذا حصلت اقترن بها من الآفات ما ينكدها وينغصها، فتحصيل هذه الأشياء شاق"[٣٤]. بينما يرى الشاطبي أن المصالح والمفاسد راجعة إلى مقتضى الأغلب حيث يقول: " فالمصالح والمفاسد الراجعة إلى الدنيا إنما تفهم على مقتضى ما غلب، فإذا كان الغالب جهة المصلحة، فهي المصلحة المفهومة عرفًا، وإذا غلبت الجهة الأخرى، فهي المفسدة المفهومة عرفا، ولذلك كان الفعل ذو الوجهين منسوبا إلى الجهة الراجحة، فإن رجحت المصلحة، فمطلوب، ويقال فيه: إنه مصلحة، وإذا غلبت جهة المفسدة، فمهروب عنه، ويقال: إنه مفسدة"[٣٥]، وبهذا يتبين لنا سلوك ابن عاشور منهج الوسط في مسألة المصلحة والمفسد بوضع الضوابط السالفة الذكر، فهو لم يبعد كالعز بن عبد السلام الذي استبعد وجود المصلحة الخالصة والمفسدة الخالصة، ولم يعمم كما ذهب الشاطبي، وإنما وقف موقف الوسط وأقر بوجود المصلحة الخالصة والمفسدة الخالصة بالشروط السابقة.

وفي تناوله لمسألة الحرية يرى أن الشريعة دلت على: "أن من أهم مقاصدها وفي تناوله لمسألة الحرية يرى أن الشريعة دلت على: "أن من أهم مقاصدها إبطال العبودية وتعميم الحرية"[٣٦]، ويعلل الجمع بين الحرية وحفظ نظام العالم بقوله: "فنظر الإسلام إلى طريق الجمع بين مقصديه – نشر الحرية وحفظ نظام العالم – بأن سلط عوامل الحرية على عوامل العبودية مقاومة لها بتقليلها وعلاجاً للباقي منها، وذلك بإبطال أسبابٍ كثيرة من أسباب الاسترقاق وقصره على أسباب الأسر خاصة"[٣٧]، وقد حصص ابن عاشور مقصد الحرية ورسم علاماته في صورة لم يسبق إليها، غير ما ذكر من ألفاظ عند العز بن عبد السلام كقوله: "والأصل والغالب في الناس الحرية"[٣٨]، وقد ذكر ابن عاشور في سياق حديثه النفيس عن الحرية قواعد حرية الأقوال والأعمال والاعتقادات وأحكام

[٣٤] ابن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميذ الشنقيطي، بيروت: دار المعارف، ط١، د.ت، ج١، ص٥.

[٣٥] الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، مرجع سابق، ج٢، ص٤٥.

[٣٦] ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص٣٩٢.

[٣٧] المرجع السابق، ص٣٩٣.

[٣٨] ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مرجع سابق، ج٢، ص٣٩.

الاعتداء على الحريات[٣٦]، وهو بذلك يرسم معالم التكامل بين الحرية المطلوبة والضوابط التي يلزم الاستناد عليها وفي ذلك منهج الوسط.

وفي حديثه عن مقصد المساواة ضرب آخر من وسطيته ونظرته الثاقبة، فهو يرى أن المسلمين مستوون في الانتساب إلى الجامعة الإسلامية بحكم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١٠) سورة الحجرات، فمعنى الأخوة يشمل التساوي على الإجمال[٣٧]، بل هي : "أصل عظيم من أصول نظام الاجتماع الإسلامي"[٣٨]، وقد ضمن حديثه عن المساواة للعوارض المانعة من المساواة وذكر منها الجبلية والشرعية والاجتماعية والسياسية، "فالجبلية والشرعية والاجتماعية تتعلق بالأخلاق واحترام حق الغير وبانتظام الجامعة على أحسن وجه، والسياسية تتعلق بحفظ الحكومة الإسلامية من وصول الوهن إليها"[٣٩]، وهو بهذه النظرة يعمق من حق المساواة ويحدد أطرها، ويفوق أقرانه في تحديد مقصدها ومغزاها.

ويجد الناظر في منهج ابن عاشور المقاصدي كثيراً من المناحي التي تحدث عنها وفصل فيها والتي ظهر فيها منهجه الوسطي، وفكره التنويري، واتجاهه الإبداعي في حلة باهية، ورونق زاه، غير أن هذا المقام لا يكفي لاستدراك كنهها، وسبر مناحيها، ويكفينا أن أشرنا إلى القليل منها، وفي كتب ابن عاشور معاد كثير لمثلها، ويمكن للقارئ مقارنتها بما كتبه ذووا الاتجاه المقاصدي، وما أوردوه من إشارات يلحظ المتمعن سبق ابن عاشور فيها، وتوسطه في بسطها وإيضاحها.

الخاتمة

بين هذا البحث معالم الوسطية في المنهج المقاصدي عند ابن عاشور، حيث أبان مفهوم الوسطية في منهجه، وأوضح جوانب من وسطية ابن عاشور في تناوله لمقاصد القرآن الكريم بين ثنايا تفسيره،

[٣٦] انظر: ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص٣٩٦-٣٩٩. وانظر: ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٧٠-٢٨٠.

[٣٧] انظر: ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص٣٢٩.

[٣٨] ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

[٣٩] ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص٣٣٤.

وفي تنظيراته التي أوضحها في مؤلفاته المختلفة، كما أشار إلى منهج ابن عاشور في مقاصد الشريعة من خلال تحليل بعض القضايا المهمة التي لها علاقة بالوسطية كالسماحة والمساواة والتيسير، والتي أظهرت بجلاء وسطية ابن عاشور في تناوله لقضايا المقاصد، وقدرته الفكرية على التجديد والتنوير في الأصول التي قادته إلى المناداة بإفراد مبحث المقاصد كعلم مستقل له قواعده وأركانه.

وقد خلص البحث إلى النتائج الآتية:

١. أن مفهوم الوسطية عند ابن عاشور يتعدى من كونه مقارباً لألفاظ التوازن والاعتدال، إلى كونه أول أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها.
٢. أن منهج ابن عاشور في تناول مقاصد القرآن الكريم مثل طريقاً وسطاً بين الإفراط والتفريط، تمثل هذا المنهج في إيضاح المقاصد الأصلية للقرآن الكريم، وأن النص القرآني هو مصدر المقاصد.
٣. أن منهج ابن عاشور في تناول مقاصد الشريعة اتسم بسلوك مسلك مراعاة المصالح والمفاسد في توسط واعتدال، كما تناول مسائل الحرية والمساواة كمقاصد أساسية تضاف إلى عموم مقاصد الشريعة في التوسط.

ويوصي الباحث بالآتي:

١. تناول وسطية منهج ابن عاشور في المنهج المقاصدي في دراسات وبحوث أكاديمية تظهر الاتجاهات التي تبناها وقررها في مصنفاته.
٢. إقامة مؤتمر علمي وندوات أكاديمية حول تراث ابن عاشور في المقاصد عموماً وفي منهجه في التعامل مع المقاصد.
٣. تضمين المناهج الأكاديمية بمباحث الوسطية، وجعل الوسطية عند ابن عاشور أحد هذه المباحث.

المصادر والمراجع

ابن عاشور، محمد الطاهر، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، (عمّان: دار النفائس، ط١١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٧م.

ابن عاشور، محمد الطاهر، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، عمان الأردن: دار النفائس، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

ابن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، تحقيق: محمود بن التلاميذ الشنقيطي، بيروت: دار المعارف، ط١، د.ت.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط١، د.ت.

أركون، محمد، ولوي عارديه، **الإسلام الأمس والغد**، ترجمة: على المقلد، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٣م.

البخاري،محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح المختصر**، بيروت: دار ابن كثير، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

البيهقي، أبو بكر أحمد، **السنن الكبرى للبيهقي**، حيدر آباد: دائرة المعارف النظامية، ط١، ١٤٣٣ه.

الجوزية، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، دار الكتاب العربي: بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج٢.

الريسوني، أحمد، **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٤، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

الشاطبي، أبوإسحاق، **الموافقات في مقاصد الشريعة**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، السعودية: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

الصلابي، علي محمد محمد، **الوسطية في القرآن الكريم**، الإمارات: مكتبة الصحابة، القاهرة: مكتبة التابعين، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

الطبري، محمد ابن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠.

الفريح، مازن بن عبد الكريم، **الرائد دروس في التربية والدعوة**، دار الأندلس الخضراء: جدة المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

قطب، سيد إبراهيم، **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط١٧، د.ت.

مسلم، أبو الحسين، **الجامع الصحيح**، بيروت: دار الأفاق الجديدة، ط١، د.ت.